Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية
MESR
منار الشرق للدراسات والأبحاث
Manar Elsharq for Studies & Research

(الأهليّة في قوله ـ تعالى ـ (إنّه ليس من أهلك) في قصّة نوح ـ عليه السّلام ـ، دراسة سياقيّة تحليليّة)

م.د سليم خلف صالح الجميليّ

اللّغة العربيّة، النّحو/ ديوان الوقف السّنّيّ، دائرة التّعليم الدّينيّ والدّراسات الإسلاميّة

استلام البحث:27-06-2025 مراجعة البحث :10-07-2025 قبول البحث:10-08-2025

الملخص

تناولت الدّراسة مسألة مهمّة من مسائل القرآن الكريم، ألا وهي مسألة معنى (الأهليّة) في قوله ـ تعالى: ((إنَّه ليس من أهلك)) في سورة هود، الآية: 46، إذ كثر فيها تعدّد الآراء الضّعيفة غير الصّائبة بحقّ النّبيّ نوح ـ عليه السّلام ـ وبحقّ عصمته الّتي هي من عصمة الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ فقام بعض المفسّرين المعاصرين بذكر آراء باطلة لا تصحّ في حقّ النّبيّ نوح ـ عليه السّلام ـ بشأن قضيّة إثبات نسب ابنه له، وأنّ ابنه المذكور في القرآن الكريم ليس ابنه حقيقة وأنّ امرأته خانته فيه، وغير ذلك من التّأويلات الباطلة الّتي لا تناسب عصمة الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ ولا عظمة كتاب الله ـ تعالى ـ ولا قدسيّته، فكان اهتمامي بالبحث منصبّا على إبطال هذه الآراء بطريقة موضوعيّة، عن طريق الرّدّ بالقرآن العظيم نفسه وبآياته النقليّة وسياقها، وبالأدلّة العقليّة. فكان لا بُدّ من اختيار المنهج الأصوب في دراسة هذه المسألة القرآنية المتعلّقة بـ (الأهليّة) ومعانيها اللّغويّة واستعمالاتها في اللّغة وتأمّلها والبحث فيها؛ لإعطاء الرّأي الأصوب فيها، ألا وهو المنهج التّحليلي الوصفيّ المعتمد على البحث في سياق النّص الذي وردت فيه هذه الكلمة، وقد قسّمت الدّراسة على مبحثين، تناول المبحث الأول دلالات كلمة (الأهليّة) المتنوّعة واستعمالاتها، وتناول المبحث الثّاني دراستها دراسة تطبيقيّة في آياتها الواردة فيها.

الكلمات المفتاحية: الأهليّة ، السّياق، الأثر

Abstract:

The study addressed an important issue of the Holy Quran، namely the issue of the meaning of (qualification) in the Almighty's saying ((Indeed، he is not of your family)) in Surah Hud، verse: 46، as there were many weak and incorrect opinions about the Prophet Noah، peace be upon him، and about his infallibility، which is part of the infallibility of the prophets، peace be upon them. Some contemporary interpreters mentioned false opinions that are not valid about the Prophet Noah، peace be upon him، regarding the issue of proving the lineage of his son to him، and that his son mentioned in the Holy Quran is not his son in reality and that his wife betrayed him in it، and other false interpretations that do not suit the infallibility of the prophets، peace be upon them، nor the greatness of the Book of God، the Almighty، nor its sanctity. My interest in the research was focused on invalidating these opinions in an objective manner، by responding with the Holy Quran itself. With its transmitted verses and context، and with rational evidence، it was necessary to choose the most appropriate approach in studying this Qur'anic issue related to "qualification،" its linguistic meanings and usages in the language، and to reflect upon and research it; to provide the most correct opinion، namely، the analytical and descriptive approach based on research within the context of the text in which this word appears. The study was divided into two sections. The first section addressed the various connotations of the word "qualification" and its usages، while the second section addressed its applied study in the verses in which it appears.

Keywords: Qualification، context، impact.

المقدِّمـــــــة

الحمد لله وكفى والصّلاة والسّلام على المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن لهديه اقتفى، وبعد: فمن أحبّ الله ـ تعالى ـ أحبّ نبيّه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ومن أحبّ النبيّ أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحب العربيّة الّتي هي لغة القرآن الكريم الّذي نزل بها، فكفى بالمرء شرفًا عظيمًا أن يكتب في العربيّة الّتي تشرّفت بكتاب الله ـ تعالى ـ، فمن هذا المنطلق جاءت أهمّيّة موضوع بحثي الّذي اخترته من القرآن الكريم الّذي يُعدّ مَعينًا عذبًا لكلّ من نهل منه، فهو منهل العربيّة الّذي جمع ألفاظها وأوزانها وإعرابها، فلا دراسة أجلّ من دراسة ألفاظ القرآن العظيم ودلالاته وتراكيبه، فبعد أن منّ الله ـ تعالى ـ عليّ بكتابة رسالة الماجستير في موضوع من القرآن الكريم، كذلك زاد فضله بأن أكرمني كذلك بالكتابة في كتابه العظيم في رسالتي للدكتوراة، فبسبب ما وجدته من عجائب المعنى وعظيم الدّلالة في ألفاظه ونظمه، ازداد حبّي وشغفي في الاستمرار في الكتابة في موضوعات القرآن الكريم، فكان لي بحوث مباركةٌ بمباركة القرآن، ومنها بحثي هذا الموسوم بـ (الأهليّة في قوله ـ تعالى ـ (إنّه ليس من أهلك) في قصّة نوح ـ عليه السّلام ـ، دراسة سياقيّة تحليليّة)، فمن أهمّ أسباب اختياري لهذا الموضوع التّفسيرات العصريّة الحديثة الّتي تكلّمت عن معنى (الأهل) في القرآن الكريم، وأنزلتها في غير منزلها، وأوردتها في غير موردها، حتّى تجرّأ بعضهم في تفسير قوله ـ تعالى ـ (إنّه ليس من أهلك)، على أنّ المراد بهذا القول هو أنّ ابن النّبيّ نوح ـ عليه السّلام ـ ليس من صلبه؛ لذلك سعيت في هذا البحث عن طريق دراسة لغويّة دلاليّة في السّياق؛ لإثبات أنّ هذه التّفسيرات وما شابهها ليست بصحيحة، وأنّ المراد منها الطّعن في كتاب الله ـ تعالى ـ وفكرة البحث لم تأتِ من غير نظر وتمحيص، فاخترتُ دراسة السّياق منهلًا مَعينًا ومعينًا؛ لأنّ السّياق هو الّذي يحدّد دلالات الألفاظ ومقصدها.

وبعد جمع المعلومات، بدأت ترتيبها على وَفق تقسيمات تلائم مادّتها، فآن لي بأن أزيل نقاب الأمور المتعلّقة بها من لغة ودلالة وسياق، فجاءت في مبحثين وخاتمة.

أمّا المبحث الأوّل فكان معنيًّا بالأثر المعجميّ لكلمة (الأهل) ودلالاته في السّياق القرآنيّ.(دراسة نظريّة)

والمبحث الثّانيّ فخصّصته لدراسة معنى (الأهليّة) في قصّة النّبيّ نوح ـ عليه السّلام ـ في سورة هود، (دراسة استقرائيّة تطبيقيّة).

المبحث الأوّل: الأثر المعجميّ لكلمة (الأهل) ودلالاته في السّياق القرآنيّ.

عند تتبّع كلمة (الأهل) في المعاجم العربيّة تجدها تدلّ على معاني ليست ببعيدة عن معانيها الّتي جاءت بها في القرآن الكريم، وأنّها تكتسب معناها وتتوسّع فيه عن طريق ما أضيفت له، فإذا أضيفت لشيء اختُصّت به فمن هذه المعاني:

(الأهل): زوج الرّجل.

إنّ (الأهل) اختُصّت بمعنى الزّوج للرّجل لا غير إذا أضيفت إليه، وصارت أقرب النّاس إليه وأخصّهم به، قال الخليل: (أهل الرّجل: زوجه، وأخصّ النّاس به)[1]، وهذا المعنى المعجميّ يظهرُ مؤيَّدًا في قوله تعالى: ((قالت ما جزاء من أراد

(1) العين: 89/4.

بأهلك سوءا إلّا أن يسجن أو عذابٌ أليم))[2]، وسياق هذه الآية الكريمة يتحدّث عن قول امرأة العزيز الّتي جاء الخطاب على لسانها وتعني بكلمة (أهلك): زوج العزيز، عندما اتّهمت النّبيّ يوسف ـ عليه السّلام ـ بمراودتها عن نفسها، ولا يخفى على ذي لبٍّ أنّ امرأة العزيز أرادت بمعنى (الأهل) في قولها: أهلك، النّسبة الحقيقة والمجاز، فالحقيقة أنّها كانت تعني نسبة الارتباط الحاصل بالزّواج، و نسبة التّشريف بإضافة نفسها للعزيز (أهلك)، والمجاز حاصل بكونها أهلًا ارتباطًا وأهلًا كونها صارت من ذويه قربة ونسبًا، والدّليل على ذلك قولها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا؟ فهي أطلقت المعنى العامّ: (الأهل) لتعظيم معنى الذّنب الحاصل لهم، وقاصدةً المعنى الخاصّ: الزّوج، ولو أرادت حصر المعنى بنفسها لقالت: ما جزاء من أراد بزوجك سوءًا؟ فهي جمعت المعنيين الّذين احتملهما المعنى المعجمي والدّلالي للفظة (الأهل)، وهو معنى توسّعيّ لا أراه يحصل في غيره.

ومثله قوله ـ تعالى ـ : ((وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنّي آنست نارًا))[3]، فقوله: فقال لأهله، أي: زوجه، ذكر الزّمخشريّ ذلك: (وخرج بأهله فوُلد له في الطّريق ابنٌ)[4]، أيْ: ولد له ابن من أهله زوجه الّتي كانت معه وحدها، وهذا يعني أنّ النّبيّ موسى ـ عليه السّلام ـ أطلق اللّفظ (أهله) قاصدًا معنى الزّوج والعائلة بالوقت نفسه، خاصّة إذا علمنا أنّه ولد له ابنٌ في الطّريق، وهذا يؤيّد سبب قوله (أهله)؛ لأنّهم صاروا عائلة مجتمعين.

(الأهل): الأقارب بلا تقييد للمعنى.

إنّ كلمة (الأهل) تعني: الأقارب بلا تقييد للمعنى، ويعني: أنّها تشمل الأقارب كلّهم بلا تحديد، ومنه قوله ـ تعالى ـ عن قصّة النّبيّ يوسف ـ عليه السّلام ـ : ((وشهد شاهدٌ من أهلها))[5]، أي: من أقارب زوج العزيز، بدلالة إضافة كلمة (الأهل) إليها، بقوله: أهلها، أيْ: (رجل من أهل امرأته)[6]، وقيل: إنّ الشّاهد كان من المقرّبين نسبًا لزوج العزيز بدليل إضافة (الأهل) للضمير الدّالّ على ذلك (أهلها)، وكان من الممكن أن يقول: وشهد شاهد من أهل زوج العزيز، لكنّه عوّض بالضّمير عن الاسم الظّاهر دلالة على تعظيم قدر الشّاهد واهتمامًا به لقربه منها نسبًا؛ لذلك قال المفسّرون بأنّ الشّاهد من أهلها، أي: (كان ابن عمٍّ لها...وقيل: كان ابن خالٍ لها)[7]، ويجوز توسّعًا أن يشمل معنى (الأهل) الأبناء والأحفاد والأزواج والأصهار والموالي، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ((وأتوني بأهلكم أجمعين))[8]، أيْ: كلّ من يقربكم ويعيش معكم بلا استثناء مؤكّدًا ذلك بقوله: أجمعين، وهو (تعبير قرآنيّ دقيق، أن يحضروا معهم كلّ من يمتّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم)[9]، وهذا التّعبير القرآني الدّقيق لا يحصل لولا كلمة (الأهل) الّتي جمعت بين أروقتها معاني القرابة، فهي كأنّها وعاء حوى تلكم المعاني، ولو قال: وأتوني بأقاربكم، فهل تراه يحمل بين طيّاته تلك المعاني؟ فتأمّل يا رعاك الله.

([2]) يوسف: 25.

([3]) طه: 9-10 .

([4]) الكشّاف: 53/3.

([5]) يوسف:

([6]) التّحرير والتّنوير: 257/12.

([7]) الكشّاف: 459/2 .

([8]) يوسف: 93 .

([9]) تفسير الشّعراويّ: 7067/11 .

(الأهل) تأتي بمعنى الزّوج والأزواج جميعًا.

إنّ كلمة (الأهل) تأتي بمعنى الزّوج والأزواج جميعًا مشتركًا مع معنى الحضور والمسكن إذا أضيفت إلى كلمة (البيت)، ولم ترد كلمة (الأهل) مضافة إلى كلمة (البيت) إلّا في موضعين من القرآن الكريم، الأوّل قوله ـ تعالى ـ واصفًا زوج النبّيّ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ : ((رحمة الله وبركاته عليكم أهلَ البيت))[10]، والثّاني في قوله ـ تعالى ـ واصفًا أزواج النّبيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ: ((إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهلَ البيت ويطهّركم تطهيرًا))[11]، ففي القولين نصبت كلمة (أهل البيت) على المدح والتّعظيم؛ (لأنّ أهل البيت مدح لهم)[12]، ففي القول الأوّل كان المراد: (أهل بيت النّبوّة...أهل بيت خليل الرّحمن)[13]، وهي زوجه، وإنّما أضافها إلى البيت؛ لأجل المدح كما ذكرتُ، ولأجل إثبات الحضور الفعليّ المتمثّل بمكان البيت الّذي جرى فيه الحوار الّذي شاركت فيه مع الملائكة[14]، وأمّا القول الثّاني الّذي وصف الله ـ تعالى ـ فيه أزواج النّبيّ بـ (أهل البيت)، فهو للمدح كذلك كما ذكره الزّمخشريّ وأنّ المعنى أنّهنّ جميعًا، أيْ: أزواجه من أهل بيت النّبوّة بلا استثناء، والّذي زاد هذا القول تأييدًا ووضوحًا سياق الآيات السّابقة الّتي كان الخطاب فيها موجّهًا لهنّ بقوله ـ تعالى ـ ((يا نساء النّبيّ لستنّ كأحدٍ من النّساء))[15].

(الأهل) بمعنى القريب حقيقةً، أو مجازًا.

إنّ تكون كلمة (الأهل) بمعنى القريب حقيقةً، أو مجازًا، فالقريب حقيقة كالأب والأمّ والإخوة والأعمام والأخوال وما تفرّع منهم جميعًا، والقريب مجازًا ما عُدّ أهلًا بسبب صداقته وتواصله، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ((**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً**))[16] ، فكلمة (الأهل) في النّصّ الكريم جاءت بمعنى الأقارب الحقيقة وما تفرّع منهم، فمعنى أن يكون الحكم من أهله ومن أهلها أيْ: (رجلا مقنعاً رضيّاً يصلح لحكومة العدل والإصلاح بينهما، وإنّما كان بعث الحكمين من أهلهما؛ لأنّ الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصّلاح، وإنّما تسكن إليهم نفوس الزّوجين، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحبّ والبغض وإرادة الصّحبة والفرقة)[17]، وإنّما جعل الحكم من أهل الزّوجين في مثل هكذا قضايا اجتماعيّة؛ (لأَنَّهما أَقْعَدُ بمعرفَةِ أَحوالِهِما، وَإِذَا لَم يُوجَدْ مِن أَهْلِ الزَّوجَيْنِ مَن يَصلُحُ لِلْحُكمِ بَينَهما كَانَ الْحَكَمَانِ مِنْ غَيْرِهِم)[18]؛ ولكونهم أكثر التصاقًا وأعرف بعاداتهم وحياتهم، فهم أقرب مودّة وأنفعهم لهم؛ ولأجل حفظ ما يجب ألّا يطّلع عليه من هو ليس بأهلٍ، وهذا لا يعني بأنّه لا يجوز أن يكون الحكمان من غير أهلهما إذا تعذّر وجودهما، قال الشّوكانيّ: (وإِذَا لَم يُوجَدْ مِن أَهلِ الزَّوجَينِ مَنْ يَصلُحُ لِلحُكمِ بَينهما كَانَ الْحَكَمان مِن غَيرهِم)، وهذا دليلٌ على أنّ كلمة (الأهل) توسّعت دلالةً إذْ جعلت الحكمين يُعدّان من الأهل حتّى وإن لم

([10]) هود: 73 .
([11]) الأحزاب: 32 .
([12]) الكشّاف: 411/2 .
([13]) المصدر نفسه.
([14]) ينظر: التّحرير والتّوير: 122/12 .
([15]) الأحزاب: 33 .
([16]) النّساء: 35 .
([17]) الكشّاف: 508/1 .
([18]) فتح القدير: 1/ 534 .

يكونا قريبين نسبًا، بشرط توافر صفات الصّلاح والإصلاح فيهما، قال أبو حيّان: (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِمَا مَنْ يَصْلُحُ لِذَلِكَ أُرْسِلَ مِنْ غَيْرِهِمَا عَدْلَيْنِ عَالِمَيْنِ)[19]، وقال الرّازيّ: (المستحب أن يبعث الحاكم عدلين ويجعلهما حكمين، والأولى أن يكون واحد من أهله وواحد من أهلها، لأن أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب، وأشد طلبا للصلاح، فإن كانا أجنبيين جاز)[20].

(الأهل) بمعنى عائلة الرّجل من أزواجه وأولاده وأقاربه والمؤمنين.

إنّ كلمة (الأهل) بمعنى عائلة الرّجل من أزواجه وأولاده، ويجوز توسّعًا في دلالتها أن تشمل أقاربه وذويه من عشيرته وأمّته على حسب سياقها الّذي جاءت فيه ومنه قوله ـ تعالى ـ مخاطبًا سيّدنا محمّدًا ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ((وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لَا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى))[21]، فسياق هذه الآية الكريمة يبيّن أنّ الخطاب خاصّ بأهل النّبيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ خاصّة من حيث ظاهرها، وسياق الآية الّتي قبلها يشير إلى ذلك في قوله ـ تعالى ـ ((وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى))[22]؛ لأنّ (ذِكر الْأَهلِ هُنَا مُقَابِلٌ لِذِكْرِ الْأَزْوَاجِ فِي قَوْلِهِ "إلى مَا متَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ"، فَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الرَّجُلِ أَزْوَاجَهُ، أَيْ مِتْعَتُكَ وَمِتْعَةُ أَهْلِكَ الصَّلَاةُ فَلَا تُلَفَّتُوا إِلَى زَخَارِفِ الدُّنْيَا. وَأَهْلُ الرَّجُلِ يَكُونُونَ أَمْثَلَ مَنْ يَنْتَمُونَ إِلَيْهِ)[23]، فالمقصود بالخطاب (وأمرْ أهلك) النّبيّ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ويجوز لما تحتمله دلالة (الأهل) التّوسّعيّة ـ كما أشرنا سابقًا ـ أن يشمل الخطاب الأقارب من المؤمنين؛ لأنّه على نحو ما هو معروف أنّ المؤمن إذا أراد إصلاح الأمّة فيكون ذلك ابتداءً بإصلاح نفسه، ثمّ عائلته، ثمّ نصح أقاربه والمؤمنين عامّة؛ لأنّه إذا صلح القريب صلح البعيد وهذا المعنى متحصّل بقوله ـ تعالى ـ (وأمر أهلك)، فقد حوى هذا التّركيب بقوّة دلالته القريب والبعيد، وهذا المعنى أيْ: البدء بالأقربين ثم الانتقال إلى من هم أبعد تدرّجًا يؤيّده قوله ـ تعالى ـ ((يا أيّها الّذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا))[24]، فبصلاح النّفس يصلح الأهل ثم يصلح النّاس.

(الأهل) بمعنى (الأصحاب)، أي: ملّاك الشّيء إذا أضيفت إلى غير عاقل.

إنّ المتأمّل لآيات القرآن الكريم الّتي وردت فيها كلمة (الأهل)، يجد أنّ أكثرها جاءت بمعنى (أصحاب الشّيء)، إذا أضيفت إلى كلمة غير عاقلة، إضافة للمعاني الّتي ذكرناها سابقًا، وهذا المعنى أيْ: الأصحاب، وإن أضيف إلى غير عاقل، فليس ببعيد عن معنى الجمع المتحصّل من معنى (الأهل) الّذي ورد بين أروقة المعاني الّتي ذكرناها، منها الأهل حقيقة والأقارب والأصدقاء والمؤمنون عامّة، وهذا يدلّ على تجدّد معنى (الأهل) وتوسّعه بحسب سياقه الّذي يرد فيه، ولا يصحّ حصره بمعنى واحدٍ؛ لكثرة المعاني الّتي تأتي عن طريقه، فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ ((هو أهل التّقوى وأهل المغفرة))[25]، فلا يخفى على ذي لُبّ أنّ الله ـ تعالى ـ هو الصّاحب والمالك والمستحقّ للتّقوى وحده؛ (لأنّ الله هو أهل للتّقوى ... إيّاه على الله ـ

([19]) البحر المحيط: 629/3 .
([20]) تفسير الرّازيّ: 74/10 .
([21]) طه : 132 .
([22]) طه: 131 .
([23]) التّحرير والتّنوير: 343/16 .
([24]) التّحريم: 6 .
([25]) المدّثّر: 56 .

تعالى ـ وأنّ غيره لا يستحقّ أن يُتّقى)[26]، فقوله: أهل التقوى، وأهل المغفرة، أيْ: أنّه ـ تعالى ـ يختصّ بهما دون غيره، ويجوز أن تحتمل (أهل) كلّ ما يتعلّق بها من أحكام شرعيّة تؤدّي إلى التّقوى؛ لذلك جيء بكلمة (أهل) لتعطي هذا المعنى الجامع الشّامل للإفراد والجمع، ومنه قوله ـ تعالى ـ ((وألزمهم كلمة التّقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها))[27]، أيْ: كانوا أحقّ بها ومن أهلها، أيْ: أصحابها ومستحقّيها، (وَأَهْلُ الشَّيْءِ مُسْتَحِقُّهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كَلِمَةِ التَّقْوَى لِأَنَّهَا تُنَاسِبُ ضَمَائِرَهُمْ وَمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ. وَهَذِهِ الْأَهْلِيَّةُ مِثْلُ الْأَحَقِّيَّةِ مُتَفَاوِتَةٌ فِي النَّاسِ)[28]، ومنه قوله ـ تعالى ـ ((إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها))[29]، وردت كلمة (الأهل) متضمّنة معنى الأصحاب والمستحقّين، (وأهل الأمانة هم مستحقّوها، يقال: أَهْلُ الدَّارِ، أيْ: أصحابها)[30].

خلاصة المبحث

بعد هذا الاستعراض الّذي ذكرنا فيه الأثر المعجميّ لكلمة (الأهل) ودلالاته في السّياق القرآنيّ، الّذي تتبّعنا فيه مسار كلمة (الأهل) في القرآن الكريم ودلالاتها عن طريق اختيار آيات قرآنيّة متنوّعة مثّلنا بها على مجيئها مختلفة المعاني والدّلالات بحسب سياقها الّذي تأتي به، وأنّه لا يمكن تقييدها بمعنى دون الآخر إلّا عن طريق سياقها، وسياق سابقها ولاحقها من الآيات القرآنيّة، ووجدنا أنّها تحتمل معاني متجدّدة ومتوسّعة ومتنوّعة بين الإفراد والجمع ومعنى صاحب الشّيء ومالكه ومستحقّه؛ لذلك ستكون خلاصة هذا المبحث بداية للمبحث الثّاني الّذي سنتحدّث فيه عن معنى (الأهليّة) في قوله ـ تعالى ـ ((إنّه ليس من أهلك))[31]، في قصّة النّبيّ نوح ـ عليه السّلام ـ متّخذين من المعاني المتنوّعة لكلمة (الأهل) في المبحث الأوّل وأثرها المعجميّ ودلالاتها منطلقًا، وحجّةً ودليلًا لإثبات أنّ كلمة (الأهل) لا يحصر معناها بمعنى واحدٍ إلّا عن طريق سياقها الّذي ترد فيه، وأنّها تتوسّع دلالةً مع محيطها السّياق السّابق لها واللّاحق لها.

المبحث الثّاني

معنى الأهليّة في قوله ـ تعالى ـ ((إنّه ليس من أهلك)) في قصّة نوح ـ عليه السّلام ـ مع

ابنه.

قال تعالى: ((وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى

([26]) التّحرير والتّنوير: 29/ 334 .
([27]) الفتح: 26 .
([28]) التّحرير والتّنوير: 197/26 .
([29]) النّساء: 58 .
([30]) التّحرير والتّنوير: 92/5 .
([31]) هود: 46 .

نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47)))[32].

سأبدأ رحلتي متأمّلًا في رياض القرآن الكريم مع هذه الآيات الكريمات، ومنطلقًا من قصّة نبيّنا نوح ـ عليه السّلام ـ الّتي تصوّر عظمة الله ـ تعالى ـ وقوّته، وعجز البشر مهما تظاهروا بالقوّة والاستطاعة في تحدّي القرآن الكريم، باحثًا عن الأسرار البلاغيّة واللّغويّة فيها ودلالتها وأثرها في السّياق الّتي جاءت فيه، وبما أنّ البحث معنيّ بدراسة كلمة (الأهل) ودلالتها في سياقها الواردة فيه، فسأبدأ بالقصّة من قوله ـ تعالى ـ ((وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ))[33]؛ لأنّها احتوت على أوّل ذكر لكلمة (الأهل) في السّورة الكريمة، وقد تجلّى فيها النّظم المحكم بالمعاني وتأديته لها بشكل واضح لذي لبٍّ بعيدٍ عن التكلّف والغموض، وأوّل ما يلحظ في النّص أنّ الله ـ تعالى ـ لم يصرّح بذكر الفاعل في هذه الآية الّتي أشارت ببدء القصّة وأحداثها، بل جاء الفعل بصيغة الفعل الّذي لم يسمّ فاعله (أُوحِي)؛ وذلك من باب التّعظيم إذ إنّ هذه الأحداث كلّها الّتي دارت وستدور فيها إنّما فاعلها واحد ليس له شريك في فعله أحد، وأنّه ـ تعالى ـ الفاعل المكوّن القادر، وفي حذف الفاعل إشارة بلاغيّة بأنّه معروف معلوم الذّكر وهو من أمثلة إيجاز الحذف في علم البيان عندما يكون الفاعل معلومًا؛ ولذلك كان الحذف أبلغ لإيصال المعنى المراد بأقلّ الألفاظ وهو الإيجاز عينه، ويمكن القول بأنّ سياق القصّة الدالّ على السّرعة المتلاحقة في تنفيذ عقوبة الله ـ تعالى ـ لقوم نوح ـ عليه السّلام ـ الّذي يصوّر المشهد كأنّه اكتمل في لحظة واحدة هو ما سوّغ مجيء الفعل (أُوحِي) مبنيًّا لما لم يسمّ فاعله، فالبناء للمجهول يقصّر الجمل حتّى تحكي حال القوّة والسّرعة الظّاهرة في المشهد بأقلّ العبارات، وعند التدبّر يتبيّن أنّ قصّة العذاب بالطّوفان بدأت بالبناء للمجهول (وأُوحِي)، فكانت المناسبة تقتضي بأن يستمرّ المشهر على منواله هذا ـ كما سنرى في الآيات الكريمات اللّاحقة ـ وأن تنتهي القصّة به كذلك كما سنرى، وهذا من التّناظر الباهر الّذي لا يكون على هذا الحسن والابتداع إلّا في كلام الله ـ تعالى ـ الّذي أعجز الخلق أن يأتوا بآية ممّن مثله. وقد ابتدأ أمر الله ـ تعالى ـ ووحيه بالتّوكيد بأنّه لن يكون هناك أحدٌ يؤمن إيمانًا كاملًا قويًّا مطمئنًّا مستقبلًا بما مضى وما هو آت من أحداث عظيمة مهوّلة، إلّا الّذين آمنوا من قبل وتحمّلوا عذاب القوم الكافرين وكفرهم، وهذا التّأكيد واضح في الحرف (لن) الّذي يدلّ على معنى النّفي والاستقبال والتّأبيد[34] يسبقه حرف التّوكيد (أنّ)، المشعر بالتّأييس من إيمانهم وأنّهم مستمرّون على كفرهم وضلالهم ((وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ: فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى أَنَّهُ نَائِبُ الْفَاعِلِ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِتَقْدِيرِ الْبَاءِ، أَيْ: بِأَنَّهُ، وَفِي الْكَلَامِ تَأْيِيسٌ لَهُ مِنْ إِيمَانِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ،

([32]) هود: 36–49.

([33]) هود: 36 .

([34]) ينظر: التّحرير والتّوير: 65/12.

مُصَمِّمُونَ عَلَيْهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ سَبَقَ إِيمَانُهُ فَلا تَبْتَئِس))[35]، ولسائلٍ أن يسأل: لماذا استعمل الفعل المضارع (يؤمن) بدلًا من الفعل الماضي (آمن) فلم يقل: أنّه ما آمن من قومك إلّا من قد آمن؟ الجواب: الفعل المضارع الدّالّ على الاستقبال يصوّر مشهدًا قادمًا لا محالة وهو أنّه ستكون هناك أمور وأهوال ومصاعب لن يستطيع أحدٌ أن يؤمن بها إلّا من كان قد آمن سابقًا بحقّ وصدقٍ؛ لأنّها أهوالٌ لا يقدر عليها من كان إيمانه ضعيفا مؤقّتا، والمشهد يوحي بأنّ هذا الإخبار ((إقناطٌ من إيمانهم، وأنّه كالمحال الّذي لا تعلّق به للتّوقّع، إلّا من قد آمن، مَن وُجد منه ما كان يُتوقّع من إيمانه))[36].

و(قد آمن) أكّدت المشهد الإيمانيّ المترسّخ في قلوب الّذين آمنوا من قبل، فثبتوا واستحقّوا هذا الوصف المؤكّد المتحقّق، فجاء التّأكيد بـ (قد) ((للتّنصيص على أنّ المراد: مَن حصل منهم الإيمان يقينا دون الّذين تردّدوا))[37]، (فلا تبتئس) جاءت تسلية للمخاطب نبيّ الله ـ تعالى ـ نوح ـ عليه السّلام ـ ؛لأنّه تلقّى خبر التّأييس بعدم إيمان بقيّة قومه بما سيحدث من أمور مستقبليّة ((كما دلّ حرف لن المفيد تأبيد النّفي في المستقبل، وذلك شديد عليه؛ لذلك عقّب بتسليته بجملة: فلا تبتئس بما كانوا يفعلون فالفاء لتفريع التّسلية على الخبر المحزن، والابتئاس افتعالٌ من البؤس وهو الهمّ والحزن، أي: لا تحزن، ومعنى الافتعال هنا: التّأثّر بالبؤس الّذي أحدثه الخبر المذكور))[38].

وقد استعمل القرآن الكريم الفعل (يفعلون) بقوله (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) ولم يقل: يعملون؛ لأنّ الفعل أعمّ وأشمل من العمل، فهم فعلوا كلّ الأشياء المعنويّة والحسّية كفرًا وتصدّيا لدعوة النّبيّ نوح ـ عليه السّلام ـ، وفيه أيضا معنى الاستقبال والاستمراريّة لما سيفعلونه مستقبلا من إنكار وجحود؛ لذا كان فيه من المناسبة للسّياق ما لا يخفى على ذي لبّ. ثمّ يستمرّ المشهد بالتّهيئة لأهوال ما هو قادم من عذاب للكافرين من قومه، وما هو قادم من إنجاء للمؤمنين منهم، بقوله ـ تعالى ـ ((واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون))[39]، فبدأ المشهد التّالي بالأمر بصناعة شيء جديد لم يخطر على بال أحد منهم ولم يعرفه البشر سابقًا قبلهم؛ وهذا الأمر سوّغ استعمال الفعل (اصنع) بدلا من (ابن)؛ لأنّ الصّناعة تكون لشيء جديد ليس له سابق في الإبداع والتّكوين ومنه قوله ـ تعالى ـ ((صنع الله الّذي أتقن كلّ شيء))[40] أي: صنع ليس له مثيل، والصّناعة تشمل كلّ فعل جديد متقن، فكلّ صناعة فعل، وليس كلّ فعل صناعة[41] ((أي ما هذا الصّنع العجيب إلّا مماثلا لأمثاله من الصّنائع الإلهيّة الدّقيقة الصّنع))[42]، والفلك معروف، وقوله: بأعيننا ووحينا استعارة أي: بحمايتنا ورقابتنا من كيد الكفّار، ووحينا: بتعليمنا وإرشادنا لطريقة بناية الفلك الّتي لم تكن مألوفة عندهم سابقا، (ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون) أي: إيحاء وتنبيه بأنّ الّذين كفروا ومنهم من قومك وأهلك سيصيبهم الإغراق لا محالةَ؛ لذلك نبّه الله ـ تعالى ـ نوحًا ـ عليه السّلام ـ وحذّره من مخاطبته في شأنهم، والمراد بالمخاطبة الشّفاعة وطلب التّخفيف ولعلّ هذا التّنبيه المبكّر ((توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح ـ عليه

([35]) فتح القدير: 564/2.

([36]) الكشّاف: 392/2.

([37]) التّحرير والتّنوير: 66/12.

([38]) التّحرير والتّنوير: 65/12.

([39]) هود: 37.

([40]) النّمل: 88.

([41]) ينظر: المفردات في غريب القرآن: 493.

([42]) التّحرير والتّنوير: 51/20.

السّلام ـ سؤال نجاته حتّى يكون الرّدّ عليه حسن السّؤال ألطف))[43]، وقوله: (إنّهم مغرقون) ولم يقل: إنّهم سيغرقون؛ لرسم صورة حيّة محكيّة عن واقع الّذين كفروا بأنّ إغراقهم واقع لا محالةَ وهذا ما صوّرته الجملة الاسميّة المؤكّدة الثّابتة، غير قابل لاحتمال تغيير حالهم لو قيلت بالجملة الفعليّة، و ((إنّهم مغرقون: أيْ: محكوم عليهم بالإغراق وقد جرى به القضاء وجفّ القلم فلا سبيل إلى كفّه))[44]، وقد جاء الخبر إنكاريّا مؤكّدا بـ (إنّ) كي ينزل المتلقّي منزلة المتردّد، وإخبارا بما هو واقع لا محالة وبيانا لسبب صنع الفلك[45]. ثمّ يستمرّ مشهد الأمر الإلهي المتمثّل بصنع السّفينة على صورة حاليّة واقعيّة كأنّنا نعيشها الآن ونراها بأعيننا أمامنا الّتي صوّرها القرآن الكريم صورة حيّةً بقوله ـ تعالى ـ ((ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليهم عذاب مقيم))[46]، فقد عبّرعن استمرار المشهد المحكيّ ((بالمضارع فعل الحاضر...الّذي يعطي المشهد حيويّته وجدّته، فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التّعبير، يصنع الفلك ونرى الجماعات من قومه المتكبّرين يمرّون به فيسخرون))[47]، قال ابن عاشور: ((وإنّما عبّر عن صنعه بصيغة المضارع؛ لاستحضار الحالة لتخييل السّامع أنّ نوحًا ـ عليه السلام ـ بصدد العمل))[48].

((حتّى إذا جاء أمرنا وفار التّنّور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلّا قليل))[49] وردت (حتّى) غاية لصناعة الفلك، أيْ: ويصنع الفلك؛ لأجل إذا جاء أمرنا، ولسائل أن يسأل: لمَ قال: ويصنع الفلك ولم يقل وصنع الفلك؟ أقول: أراد الله ـ تعالى ـ وصف حال نوح ـ عليه السّلام ـ ومعاناته مع قومه أثناء صناعته الفلك عندما كانوا يمرّون عليه باستمرار ساخرين منه ومن عمله أثناء صنعه للفلك، وكان يردّ عليهم بالسّخرية نفسها حين يوعدهم بأنّه سيسخر منهم كما يسخرون، وبأنّ عذاب الله ـ تعالى ـ واقع مقيم عليهم، وكلّ هذا لن يكون معلومًا للمتلقّي لو قاله بالماضي (وصنع)، فحكاية الحال بالمضارع تناسب السّياق الّذي جاء به النّصّ الدّالّ على أنّه بصدد العمل المستمرّ، وأنّهم بصدد الإعراض والاستهزاء المستمرّ، فكان من التّناسب بين الحالين ما لا يخفى على متأمّل.

ومن لطائف التّعبير في هذا النّصّ الكريم أنّ الله ـ تعالى ـ قدّم الأمر بحمل خلائقه من الحيوانات قبل البدء بحمل المؤمنين من قومه وأهله؛ لأنّه ((يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه ـ عليه السّلام ـ في تمييز بعض عن بعض وتعيين الأزواج، وأمّا البشر فيدخل الفلك باختياره فيخفّ فيه معنى الحمل))[50]، ولأنّ ((الإنسان عاقل وهو لعقله كالمضطرّ إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه، فلا حاجة فيه إلى المبالغة في التّرغيب، بخلاف السّعي في تخليص سائر الحيوانات))[51] وفي هذا إشارة لطيفة بأنّ الحيوان عند المصائب يحتاج إلى من يساعده وينقذه بحكم فقده للعقل والإدراك، أمّا الإنسان فهو مجبول بالفطرة بحماية نفسه من المصائب؛ لذلك كان التّقديم فيه من البلاغة والتّناسب ما هو بديع في نظمه وإيجازه.

([43]) التّحرير والتّنوير: 67/12.
([44]) روح المعاني: 248/6.
([45]) ينظر: الجدول في إعراب القرآن: 265/12.
([46]) هود: 38-39.
([47]) في ظلال القرآن: 1877/4.
([48]) التّحرير والتّنوير: 67/12.
([49]) هود: 40.
([50]) روح المعاني: 253/6.
([51]) تفسير الرّازيّ: 348/17.

قوله ـ تعالى ـ (وأهلك) سبق أن ذكرت في المبحث الأوّل أنّ كلمة (الأهل) تحتمل معاني كثيرة ودلالات مختلفة يحدّدها السّياق الّذي وردت فيه، فما المقصود بـ (الأهل) في هذا النّصّ؟

الجواب: سياق النّصّ يوضّح أن المقصود بـ (أهلك) عائلته الّتي تشمل زوجته وأولاده وكذلك أقاربه؛ لأنّ من معاني الأهل كما ذكرنا سابقًا ((قرابته وأهل بيته و هو اسم جمع لا واحد له، وزوجه أوّل من يبادر من اللّفظ))[52]، والّذي سوّغ إفراد الأهل بأمر خاصّ بقوله (وأهلك)؛ ((لمزيد العناية بهم))[53]، وإنّما ((خُصّصوا تشريفًا))[54]، وممّا زاد العناية والاهتمام بأهل نوح ـ عليهم السّلام ـ أنّ الله ـ تعالى ـ خصّهم بالذّكر بعد الأمر بحمل الكائنات الضّعيفة الّتي لا تستطيع إنقاذ نفسها بنفسها إلّا عن طريق حملها ووضعها في السّفينة، فعامل الأهل معاملة الكائن الضّعيف وزادهم اهتمامًا وتخصيصًا، ثمّ جاء الاستثناء (إلّا من سبق عليه القول) قريبا من ذكر الأهل إشارة وإيحاء بأنّه هناك من أهلك يا نوح من هو كافر، وقد سبق عليه القول أنّ مصيره الإغراق كما في قوله ـ تعالى ـ السّابق ((ولا تخاطبني في الّذين ظلموا أنّهم مغرقون))[55]، وهو تذكير له ببداية فصل جديد بعيد عن الانتماء النّسبي وإنّما هو انتماء عقديّ فقط لا تؤثّر فيه أواصر القرابة، إلّا قرابة الدّين والإيمان وذلك بقوله (ومن آمن)، أي: احمل فيها أهل الإيمان من أهلك وأهل الإيمان من غير أهلك الأقارب، وما آمن معه إلّا قليل.

((وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربّي لغفور رحيم))[56]

من اللّطائف التّعبيريّة في قوله (اركبوا فيها) أنّ الفلك لا يركب فيها بل يصعد عليها، فلم عبّر بلفظ الرّكوب في هذا المقام؟ ولمَ عدّى الفعل (ركب) بـ (في) ولم يقل: (اركبوا عليها) كما نقول: اركب على الدّابّة؟

الجواب: أنّ إطلاق لفظ الرّكوب فيه استقرار وأمان؛ لذلك استعمله مجازًا لزرع الطمأنينة في قلوب المؤمنين الّذين هم مقبلون على جوّ مدجّج بالصّعوبات، مصوّرًا لهم الفلك مكانًا صالحًا مهيّأً للحماية والأمان، وإنّما عدّاه بالفعل (في) ((لأنّ إطلاق الرّكوب عليه مجاز، وإنّما هو جلوس واستقرار، فلا يقال: ركب السّفينة، فأرادوا التّفرقة بين الرّكوب الحقيقيّ والرّكوب المشابه له، وهي تفرقة حسنة))[57]

قال الرّازيّ في زيادة (في) مع (اركبوا فيها): ((يجوز أن يكون فائدة هذه الزّيادة، أنّه أمرهم أن يكونوا في جوف الفلك لا على ظهرها، فلو قال: اركبوها، لتوهّموا أنّه أمرهم أن يكونوا على ظهر السّفينة))[58]

وكذلك قوله (مَجراها ومُرساها) إذ استعمل المصدر الميمي (مجرى) بفتح الميم للفعل الثّلاثيّ (جرى)، واستعمل المصدر الميمي (مُرسى) بضمّ الميم للفعل الرّباعيّ (أرسى)، وفي هذا الاستعمال تصوير مشهدٍ عظيم كأنّما يُرى أمامك واقعًا، إذ الفلك كأنّها تجري بإرادتها بدون مسيّر لها، وهو مشهد يوحي بأنّها محمولة على الماء فهي تجري بلا صعوبة ولا تكلّف؛ لأنّها مأمورة بالجريان فقط؛ لذلك قال: بسم الله مجراها، أي: بإرادة الله وحفظه تجري، والآية الّتي بعدها تؤكّد ذلك بقوله ـ

([52]) التّحرير والتّنوير: 72/12.

([53]) فتح القدير: 566/2.

([54]) المحرّر الوجيز: 172/3.

([55]) هود: 37.

([56]) هود:

([57]) التّحرير والتّنوير: 73/12.

([58]) تفسير الرّازيّ: 349/17.

تعالى ـ ((وهي تجري بهم))[59]، ثمّ قال: (ومُرساها) فهي لن تستطيع أن ترسو بأيّ مكان إلّا بمكان أراده الله لها، فالفعل (أرسى) يتعدّى بنفسه ولا بدّ له من مفعول وهو الفلك، أي: أنّ الله ـ تعالى ـ هو الّذي يُرسيها ويختار مكانًا خاصّا ومهيّأً لاستقرارها واستوائها كما سيأتي ذكره في الآيات القادمة، فهي تجري بسهولة لكنّها لن تستقرّ إلّا حيث أراد الله ـ تعالى ـ المكان المناسب لبدء الحياة الجديدة.

((وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوحٌ ابنه وكان في معزلٍ يا بُنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين))[60]

يبدأ مشهد الأبوّة المدمج بالنّبوّة الصّادقة غير المجاملة في سبيل الدّعوة الحقّ إلى الله ـ تعالى ـ بقوله: (ونادى نوح ابنه)، فهو التّأكيد الصّريح الأوّل على أنّ المُنادى ابن نوح ـ عليه السّلام ـ من صلبه مهما كانت عقيدته الّتي سنتكلّم عنها، وهذا ردٌّ غير قابل للتأويل والنّقاش على الّذين يقولون في كتاب الله ـ تعالى ـ ما لا يعلمون من المفسّرين المتأخّرين، بشأن قضيّة نسب ابنه منه، وسيكون لي ردّ على كلّ مسألة بخصوص هذا الأمر تتابعًا مع الدّراسة.

ويبدو أنّ نداء نوحٍ ـ عليه السّلام ـ لابنه كان قبل أن تبدأ الفلك بالجريان؛ لأنّه ((كان قبل جريان السّفينة في موج كالجبال، إذ يتعذّر إيقافها بعد جريها؛ لأنّ الرّاكبين كلّهم كانوا مستقرّين في جوف السّفينة))[61] وسياق النّصّ الّذي وصف حال المنادي بالماضي يدلّ على ذلك حين قال: ونادى، ولم يقل: وينادي، أي: أنّ المحاورة الأبويّة الفطريّة المغطّاة بالعقيدة الثّابتة غير المنحازة لغيرها كانت حين رأى نوح ـ عليه السّلام ـ ابنه في مكان غير المكان الّذي أمرهم بالذّهاب إليه؛ من أجل النّجاة وهو الرّكوب والاستقرار في الفلك، إذ كان في ((مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح))[62]، و (معزل) أي: منعزلا عن أبيه وأهله وقومه، فهو لم يسمع النّداء الأوّل الّذي أمرهم بالرّكوب في الفلك (وقال اركبوا فيها)؛ لذلك تكرّر النّداء له بقوله: يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، أي: لا تكن في جانب اختاره الكافرون، ولم يقل: ولا تكن من الكافرين؛ لأنّ الحوار حوار اختيار مكان وليس حوار اختيار عقيدة ودليل ذلك قوله: ولا تكن مع، وليس: من، وهذا يوحي بأنّ نوحًا ـ عليه السّلام ـ ربّما لم يكن يعلم بكفر ولده أو أنّه كان شاكًّا فيه وأنّه في حال المتردّد المحتار؛ لذلك كان الحوار حوارًا ليّنًا أبويًّا متعطّفًا من أجل إنقاذه جسديّا، ثمّ تجديد الدّعوة له لإنقاذه عقديًّا.

ويبدو أنّ الابن كان صغيرًا على فهم عاقبة ما سيجري، وأنّه كان لا يفقه نتيجة الإعراض عن دعوة النّجاة الّتي وُجّهت إليه في اللّحظات الأخيرة؛ لذلك كان تبريره للإعراض أنّه سيلجأ إلى أيّ مأوى يحميه من الماء الّذي رأى بداية خروجه بدليل قوله: سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء، ولم يقل: يعصمني من الموج أو الغرق، وهذا أيضًا دليل على أنّ الحوار بينه وبين أبيه كان قبل جريان الفلك وحدوث الموج العالي، والّذي يتأمّل ردّ الابن يجده أنّه لم يختر بديلا عقديًّا وإنّما اختار بديلًا مكانيًّا؛ لأجل إنقاذ نفسه، فهو لم يقل: سآوي مع الكافرين، ويبدو أنّ هذا الردّ ما جعل نوحًا ـ عليه السّلام ـ يأمل أنّه ما زال فيه شيء من الرّجوع والإيمان.

([59]) هود: 42.

([60]) هود: 42-43.

([61]) التّحرير والتّنوير: 75/12.

([62]) فتح القدير: 567/2.

أمّا قوله ـ تعالى ـ ((وحال بينهما الموج فكان من المغرقين)) فيوحي بأنّ الحوار بين الأب وابنه قد وصل إلى طريق مسدود، وأنّه لا فائدة من الإطالة والوقت ضيّق والأرض امتلأت ماءً والموج بدأ بالارتفاع؛ فكان حائلًا وقاطعًا لأيّ حوار ودعوة؛ لأنّ إنقاذ المؤمنين الطّائعين أولى وأفضل عند الله ـ تعالى ـ من إضاعة الوقت لمن اختار سبيل الغيّ بنفسه، وهذا المشهد أخبر به ـ تعالى ـ نوحًا ـ عليه السّلام ـ منذ بدء مرحلة العقاب الإلهيّ لقومه عندما قال: ((ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون))، أي: لا تحاورني مستقبلا فيمن ظلم نفسه باختياره فهو مغرق لا محالة حاله حال الّذين اختاروا مصيرهم بأنفسهم، وفي هذا المشهد من التّناسب بين سياق السّابق من الآيات وبين اللّاحق ما لا يخفى.

((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعدًا للقوم الظّالمين)).

في هذا النّصّ الكريم أسرار بلاغيّة ولغويّة لا أستطيع اختزالها وأن أمرّ عليها مرورًا غير موفٍ حقّه، حتّى وإن كان البحث معنيًا في مسألة محدّدة تقتضي عدم الإطناب؛ لأنّ هذه الأسرار البلاغيّة واللّغوية تمثّل أحد جوانب فهم بعض أسرار القرآن الكريم العظيمة، وكنوزه الدّلاليّة الثّمينة؛ لذلك سأبدأ في صوره البلاغيّة الّتي مع قصرها لكنّها احتوت على فنون بلاغيّة كثيرة، فهي صوّرت مشهدًا تاريخيًّا ثابتًا بعبارات موجزة مختصرة تحتوي على لمسات بلاغيّة لغويّة في غاية الجمال.

يتجلّى في سياق هذا النّصّ الكريم النّظم المحكم بالمعاني وتأديته لها بشكل جليّ بعيد الغموض، ذي ألفاظ سلسة بعيدة عن التّنافر متدفّقة بعذوبة ورقّة.

فلنتأمّل: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي).

ابتدأ النّصّ الكريم بذكر الأرض وتقديمها على السّماء؛ لأنّ الغاية من أحداث الطّوفان هي للوصول إلى ملجأ الأمان والاستقرار، وذلك لا يتحقّق إلّا بوجود بانحسار الماء عن الأرض؛ فلذلك تمّ تخصيص الأرض تقديمًا على السّماء.

الفعل: (قيل) ليس فيه ذكر للفاعل وتصريح به تعظيمًا له؛ لأنّه معلوم الذّكر منذ اللّحظة الأولى لبدء الأحداث الّتي هي فاعلها واحد لا يشاركه في أفعاله أحد فالمعنى في (قيل) و (غيض) و (قضي) ((اختصار لظهور فاعل القول؛ لأنّ مثله لا يصدر إلّا من الله، والقول هنا أمر التّكوين...وبني فعل غيض الماء للنّائب لمثل ما بني فعل وقيل باعتبار سبب الغيض أو لأنّه لا فاعل له حقيقة...فلم يصرّح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوّى السّفينة وقال بعدا، كما لم يصرّح بقائل يا أرض ويا سماء في صدر الآية سلوكا في كلّ واحد من ذلك لسبيل الكناية أنّ تلك الأمور العظام لا تتأتّى إلّا من ذي قدرة))[63] مكوّن قاهر جمع السّماء والأرض في نداء واحد في إشارة لاشتراكهما في عملية إطغاء الماء، وتقديم الأرض على السّماء يوحي بأنّها من ابتدأت الطّوفان بفوران التّنّور الّذي مستقرّه في الأرض، كذلك تأمّل نداء الأرض والسّماء بصيغة النّكرة المقصودة؛ لأجل أن يكون بلع الماء محصورًا في المكان المخصّص لخروجه لأجل العقاب وليس بلع ماء الأرض كلّها، وإضافة الماء إلى الأرض بقوله: (ماءك) أي: ابلعي الماء الّذي خرج منك لأجل الغاية المقصودة وليس بلع شيء عليك، وفي هذا من عظيم التّعبير وجماله ما لا يخفى على متأمّل، وكذلك نداء السّماء بأن تقلع عن المكان نفسه المعنيّ بمحلّ الحدث وليس كلّ سماء؛ لذلك جاء قوله: (وغيض الماء) بعد النّداء للأرض والسّماء؛ لأنّه

([63]) التّحرير والتّنوير: 81/12.

يستحيل أن يختفي الماء باستمرار خروجه من الأرض ونزوله من السّماء، وكذلك في إضافة الماء للأرض دون السّماء لفتة علميّة بأنّ أصل الماء من الأرض حتّى وإن نزل من السّماء بوقت ما؛ لذلك كان التّناسب أن يأتي لفظ الماء مضافًا إلى الأرض وليس إلى السّماء؛ لأنّ الأرض مصدره، وفي هذا التّنسيق والتّرتيب دلالات بلاغيّة واضحة جليّة لكلّ متأمّل.

وكذلك توجيه النّداء للأرض والسّماء وكأنّهما عاقلين فيستجيبان وإن كانا من الموجودات الضّخمة جدًّا، فهو من الأدلّة على عظمة الآمر لهما وقوّته النّافذة الّتي لا تحتاج لذكره صراحة، فإذا كانت القدرة الإلهيّة تنفذ إلى الجمادات العظيمة بدون ذكر الفاعل، فنفوذ هذه القدرة إلى الأحياء سيكون من باب أولى.

(واستوت على الجوديّ) عبّر بالاستواء المنسوب للفلك مجازًا للدّلالة على أنّها اختارت بنفسها المكان المناسب للاستقرار والهدوء والطّمأنينة، وفي حذف الفاعل إيحاء بأنّ الّذي أمرها بالاستواء والاستقرار واختيار المكان المناسب عند انتهاء أحداث الطّوفان؛ هو الّذي أجراها واختار إرساءها في بداية الأحداث كلّها بقوله: (بسم الله مجراها ومرساها).

(وقيل بعدا للقوم الظّالمين)، إشارة إلى أنّ عذاب الله ـ تعالى ـ كان لإبعاد الظّالمين أنفسهم باختيارهم الكفر عن الّذين اختاروا طريق الحقّ والصّواب باتّباعهم النّبيّ ومصدّقين دعوته ووعده بإنجائهم، فقوله: (بعدًا) دعاء بالمصدر بأن تكون الحياة الجديدة حياة المؤمنين بعيدة عن كلّ ظالم لنفسه اختار مصيره بنفسه.

وعند التّدبّر لهذا النّصّ الكريم الّذي اختتمت به أحداث الطّوفان نرى أنّ نهاية المشاهد بدت سريعة متتابعة وكأنّها اكتملت في لحظة واحدة، وأنّ التّعبير بالفعل الّذي لم يسمّ فاعله كان دقيقا إذ قصّر العبارات وجعلها تصوّر المشاهد كلّها بحال السّرعة الظّاهرة، وفيه من التّناسب الجميل البليغ بين قصر العبارات وأحداثها، وكذلك نجد أنّ أحداث الطّوفان بدأت بالصّيغة نفسها بناء الفعل لما لم يسمّ فاعله بقوله ـ تعالى ـ : ((وأُوحي إلى نوح))، فكانت المشاكلة تقتضي بأن يختتم المشهد بالصّيغة نفسها كما بدأ به سابقًا، وهذا لون من التّناسب الباهر الّذي لا يستطيع أحد أن يأتي به على هذا الحسن إلّا كلام الله ـ تعالى ـ ، وحاشاه أن يأتي الخلق بمثله أبدًا.

((ونادى نوح ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عملٌ غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين، قال ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين))

الّذي يتأمّل بداية النّصّ الكريم يجد أنّه لا يدلّ على طلب صريح في ظاهره من نوح ـ عليه السّلام ـ بإنقاذ ابنه الّذي صرّح بانتسابه إليه صراحة مؤكّدًا ذلك التّصريح بأداة التّوكيد (إنّ) ((للاهتمام به))[64] بقوله: إنّ ابني من أهلي، قال الزّمخشريّ: ((إنّ ابني من أهلي، أي: بعض أهلي؛ لأنّه كان ابنه من صلبه...وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي؟))[65] وإنّما هو إخبار متضمّن معنى الطّلب بمعرفة مصير ابنه الّذي اختار مكانًا مخالفًا للمكان الّذي أمره باختياره، خاصّة إذا علمنا بأنّه ليس ثمّة دليل ملموس يدلّ على أنّ نوحًا ـ عليه السّلام ـ كان عالمًا بكفر ابنه، وهذا ما سوّغ له بأنّ يقول بأنّه من أهلي المؤمنين الّذين وعدهم الله ـ تعالى ـ بإنجائهم بقوله: (قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك)، وليس معناه ردًّا على الله ـ تعالى ـ أو اعتراضًا أو نفيًا لقوله: (إنّه ليس من أهلك) في النّصّ نفسه، ولا ظاهره التّكذيب من الله ـ تعالى ـ لنوح

([64]) التّحرير والتّنوير: 84/12.

([65]) الكشّاف: 398/2.

ـ عليه السّلام ـ لقوله: إنّ ابني من أهلي، ولا لإثبات نسبه إليه كما ادّعى بعض المفسّرين ولا يصحّ ذلك أبدًا؛ لأنّه لو كان الأمر كذلك لقال: إنّ ابني منّي، وربّما يقول قائل: هو قال: من أهلي، ومن معاني الأهليّة: الزّوج، فهو يعني: إنّ ابني من زوجي، أقول: إنّ الله ـ تعالى ـ عندما أمر نوحًا ـ عليه السّلام ـ بحمل أهله في الفلك كان يعني عائلته وأقاربه من المؤمنين وليس زوجه، فلا يصحّ أن يأمره بإنقاذ زوجه الّتي معلوم كفرها بالقرآن الكريم صراحة بقوله ـ تعالى ـ ((ضرب الله مثلًا للّذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النّار مع الدّاخلين))[66]، فيبطل القول بأنّ معنى: من أهلي، أي: من زوجي؛ لما ذكرت.

ولسائل أن يقول: كيف رضي نوح ـ عليه السّلام ـ أن يعيش لحظة ضعف بسبب عاطفة الأبوّة ويطلب من الله ـ تعالى ـ إنقاذ ابنه الكافر؟

وهل سبقت عاطفة الأبوّة حدود الدّعوة الّتي لا تضعف في سبيل الحقّ؟

أقول: إنّ نوحًا ـ عليه السّلام ـ لم يكن طلبه صريحًا بإنقاذ ابنه الكافر من الغرق وليس ثمّة دليل على ذلك، وإنّما كان إخبارا باختفاء ابنه الّذي لا يعلم مصيره الّذي حال بينهما الموج فكان من المغرقين، ولوكان عالمًا بغرقه فهل من المعقول أن يطلب من الله ـ تعالى ـ إحياءه من الموت؟ ولا يفوتني أن أقول: إنّ الله ـ تعالى ـ ذكر أنّ نوحًا ـ عليه السّلام ـ لم يسأله أصلا شيئا وذلك بقوله في نهاية النّصّ الكريم: (فلا تسألن ما ليس لك به علم)، أي: لا تطلب مستقبلا شيئا لا تعلمه بشأن ابنك الّذي كنت تجهل كفره؛ لأنّ سؤالك سيعدّ جهلا؛ لذلك استعاذ نوح ـ عليه السّلام ـ بالله ـ تعالى ـ أن يكون من الجاهلين، فمعناه أنّه لم يسأله ولن يسأله في المستقبل.

لذلك كان قوله: إنّ ابني من أهلي الّذين وعدتني بإنجائهم ووعدك هو الحقّ وأنت القاضي الحاكم بهذا الأمر كلّه، ولو كان الأمر طلبًا صريحًا بالإنقاذ لكان الأولى أن يقول: وأنت أرحم الرّاحمين، أي: إخبار فيه طلب الرّحمة وليس إخبارا فيه طلب معرفة مصير ابنه؛ لذلك كان من الطّبيعيّ لنوح ـ عليه السّلام ـ أن يأمل نجاة ابنه المؤمن في ظاهر الأمر عنده؛ لأنّه يشمله وعد الله ـ تعالى ـ بالإنقاذ، ويجب التّنبيه بأنّ هذا الأمل لا يعدّ جهلا من نوح ـ عليه السّلام ـ بمصير ابنه الكافر؛ لأنّ الأنبياء يتعاملون مع الخلق وفقا لما هو معلوم وليس بعلم النّبوّة، ولعلّه درس من الله ـ تعالى ـ وعبرة للخلق.

(إنّه ليس من أهلك إنّه عملٌ غير صالح)

في هذا النّصّ الكريم تبرز مسألة الأهليّة وفهمها عند المتلقّي الّذي ظاهره يبدو فيه التّكذيب من الله ـ تعالى ـ والرّدّ على قول نوح ـ عليه السّلام ـ عندما قال: إنّ ابني من أهلي، بأنّه ليس من أهلك، فما الوجه الصّائب في ذلك؟

أقول: إنّ سياق الآيات السّابقة واللّاحقة المرتبط بهذا النّصّ جعل لمعنى الأهليّة وجوهًا لكلّ واحد منها صحّة مطابقة لأدلّة العقل والنّقل التّالية:

الوجه الأوّل: أنّ النّفي لم يكن يعني نفي النّسب؛ لأنّ المقام ليس مقام إثبات نسب ولا يصحّ ذلك أبدًا؛ لأنّ الله ـ تعالى ـ لم ينف النّسب وإنّما نفى أن يكون ابنه من أهله الّذين وعد بإنجائهم؛ لذلك عقّب نوح ـ عليه السّلام ـ مباشرة بقوله: وإنّ وعدك الحقّ، وهذا يعني: أنّ ابني من أهلي الّذين وعدتني بوعدك الحقّ بإنجائهم، وبهذا الوجه يتطابق القولان ولا يتناقضان.

([66]) التّحريم: 10.

الوجه الثّاني: من القريب جدّا أن يكون قوله: ليس من أهلك، أي: ليس من دين أهلك، فهو نفى ((أن يكون من اهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح ـ عليه السّلام ـ إنّ ابني من أهلي، ولكنّه إعلام بأنّ قرابة الدّين بالنّسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائع في الاستعمال))[67] وهو على نيّة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه، فاكتفى بالمضاف إليه للعلم بإيمانهم ودينهم واتّباعهم لنوح ـ عليه السّلام ـ ويقويّ هذا الوجه قوله ـ تعالى ـ بعدها مباشرة: إنّه عمل غير صالح، ((فهو تعليل لانتفاء كونه من أهله...وإنّ هذا لما انتفى عنه الصّلاح لم تنفعه أبوّتك))[68]، أي: أنّه خرج عن أهليّة الإيمان والاتّباع إلى أهليّة الكفر والارتداد بقبيح عمله، فهو ليس من أهلك وإن كان ابنك من صلبك؛ لأنّ ((مدار الأهليّة هو القرابة الدّينيّة وقد انقطعت بالكفر فلا علاقة بين مسلم وكافر)) حتّى وإن كانا متقاربين نسبا، وهذه ((حقيقة العروة الّتي ترجع إليها الخيوط جميعا، عروة العقيدة الّتي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النّسب والقرابة...فهو منبت منك وأنت منبت منه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعروة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة))[69].

الوجه الثّالث: ورد عند بعض المفسّرين القول بأنّ معنى: إنّه ليس من أهلك، أي: إنّه ليس ابنك صراحة وأنّه ولد على فراشك، فكان ردّ الله ـ تعالى ـ بذلك لإعلام نوح ـ عليه السّلام ـ بأنّه خلاف ما تظنّه.

أقول: حتّى إن صحّ ذلك التأويل من المفسّرين فهل تعدّ عدم نسبة ابن نوح ـ عليه السّلام ـ إليه مسوّغًا لتكفيره؟ بمعنى: أنّ الله ـ تعالى ـ أغرق الابن بسبب نسبه أم أغرقه بسبب كفره وارتداده عن دين أبيه؟ وهل عدم الانتساب تمنع أن يكون الابن مؤمنا؟

ولا يفوتني أن أذكر أنّ هذا القول بعدم ثبوت النّسب قد رددته سابقا؛ لأنّه ((قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيّما وهو على خلاف نصّ القرآن. أمّا قوله ـ تعالى ـ فخانتاها، فليس فيه أنّ تلك الخيانة إنّما حصلت بالسّبب الّذي ذكروه. قيل لابن عبّاس ـ رضي الله عنها ـ: ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدلّ النّاس على ضيفه إذا نزلوا به، ثمّ الدّليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله ـ تعالى ـ : الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات[70]))[71]، وكذلك رددته لما تحمله معنى الأهليّة من دلالات كثيرة يحدّدها السّياق الّذي وردت فيه، وكذلك فيه منافاة للقرآن وسياقه ضمن هذه القصّة؛ ولأنّ الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ يجب أن ينزّهوا عن هذه الأقوال الّتي تنقص من قدرهم، وقد جنّبهم الله ـ تعالى ـ ذلك تعظيمًا وتوقيرًا لهم ولعصمتهم.

وأختم هذا المبحث مكتفيًا بهذا القدر من الرّدّ والتأويل والتّوضيح بشأن معنى الأهليّة في قوله ـ تعالى ـ (إنّه ليس من أهلك)؛ لما أراه من احتمالات كثيرة يتحمّلها السّياق الّذي ورد فيه هذا النّصّ، والّتي لا يمكنّني الإطالة بشأنها في هذا المبحث اختصارًا لأصوبها؛ وأوصي بتتبّع التّفاسير الّتي تكون فيها الآراء بعيدة عن وصم الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ بالنّقائص الّتي تتنافى مع بلاغة القرآن الكريم وعظمته، والحمد لله ربّ العالمين.

خاتمة البحث ونتائجه وتوصياته:

([67]) التّحرير والتّنوير: 85/12.

([68]) الكشّاف: 399/2.

([69]) في ظلال القرآن: 1880/4.

([70]) النّور: 26.

([71]) تفسير الرّازيّ: 351/17.

الحمد لله وكفى والصّلاة والسّلام على النبيّ المصطفى وعلى آله وصحبه ومن آثاره اقتفى، وبعد: فبعد أن منّ الله ـ تعالى ـ عليّ بإكمال بحثي ودعمني لأخلص إلى جملة من النّتائج الآتية:

1- أسهم البحث في خدمة كتاب الله ـ تعالى ـ ببيان بلاغته وأسرار فصاحته وإعجازه، وأنّ تأويله لا يكون تامّا ما لم يفهم سياق آياته كلّها؛ لأنّه كتاب محكم متشابه لا خلل فيه ولا نقص، ويكمّل بعضه بعضا، من بدايته إلى نهايته.

2- قدمت الدّراسة تصوّرا جديداً لتفسير القضايا المتعلّقة بالقصص القرآنيّ عبر الجمع بين تأويلات القدماء الصّحيحة، وتأويلات الحداثة والمقارنة بينهما وترجيح الصّواب منهما؛ ما يؤكد أنّ الجمع بين آراء القدماء والمحدثين منهج واقعيّ ذو أثر علميّ رصين.

3- توصّلتُ إلى أنّ بعض المفسّرين المحدثين سعوا بقصد أو بجهل إلى تجريد القرآن الكريم من القداسة، عن طريق التّعامل معه كأنّه نصّ بشريّ، فظهرت تأويلاتهم لكثير من الآيات ومنها الآيات الّتي درستها تأويلات ضعيفة ولا تحظى بأيّ درجة للقبول، خاصّة ما يتعلّق بمسألة ابن نوح ـ عليه السّلام ـ ونسبه له وخيانة زوجته له.

4- أثبتّ بالأدلّة النّقليّة والعقليّة وعن طريق سياق الآيات القرآنيّة المتعلّقة بقصّة نوح ـ عليه السّلام ـ أنّ الادّعاء بأنّ ابن نوح ـ عليه السّلام ـ ليس ابنه من صلبه وأنّ امرأته خانته بالزّنا ادّعاء باطل لا يقوم على أيّ دليل، وأنّه ادّعاء وتأويل ضعيف لا يقوم على أيّ أسس علميّة.

5- أثبتت الدّراسة عمق التّعالق الدّلالي بين مكوّنات النّصّ القصصيّ القرآني، ولا سيّما المتعلّق بالأنبياء وأحوالهم الّتي كانت مطعناً للطاعنين بادّعاء بعض الآراء الّتي لا تناسب قدسيّة القرآن العظيم، وهو تدليل ساند لخصوصيّة النّصّ القصصيّ القرآني وتميّزه من سواه .

6- أوصي بتتبّع التّفاسير الّتي تكون فيها الآراء بعيدة عن وصم الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ بالنّقائص الّتي تتنافى مع بلاغة القرآن الكريم وعظمته

7- أدعو المؤسّسات المعنيّة بعلوم القرآن وتفسيره، ومراكز البحوث القرآنيّة والجامعات الدّينيّة إلى تسليط الضوء على تأويلات المفسّرين المعاصرين، والرّدّ عليها بطرق موضوعيّة، ودعم كلّ المؤسّسات المساندة لتوعية النّاس بخطورة هذه التأويلات الباطلة الّتي تمسّ معتقدًا عظيما، ودستورًا تامًّا وهو القرآن الكريم؛ للحفاظ على ثوابت ديننا وهويّته.

مصادر البحث ومراجعه:

- **القرآن الكريم**، ثمّ:

1- البحر المحيط في أصول الفقه، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت 794هـ)، دار الكتبي، الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1994م.

البصري (ت 170هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1424هـ-2003م.

2- التحرير والتنوير، (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984 هـ.

3- تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت 60هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.

4- تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت 60هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.

5- تفسير الشعراوي(الخواطر)، لمحمد متولي الشعراوي (ت1418هـ)، مطابع أخبار اليوم، (ليس على الكتاب الأصل - المطبوع - أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997 م).

6- الجدول في إعراب القرآن الكريم، لمحمود بن عبد الرحيم صافي (ت 1376هـ)، دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1418 هـ.

7- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.

8- العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي

9- فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت1250هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ.

10- في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت 1385هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ 0

11- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (تفسير الزمخشري)، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.

12- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ.
13- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت 502هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – 1412 هـ.